

# تكوين الفكر العربي قبل الإسلام (3)

الدكتور رشاد محمد خليل

الطبيعة ( وهكذا . . . وليس معنى هذا اننا نريد ان نشيء علما عربيا في هذه الابواب ذلك ان المادة العلمية التي سنعثر عليها مهما بلغت لا يساوي شيئا بجانب هذا الانقلاب الهائل الذي حققه العلم الحديث ولكن اهمية هذا التصنيف هو اعادة دراسة الفكر العربي دراسة علمية موضوعية على اساس من مناهج مقرررة لتحديد مكائته التاريخية وكشف اسلوبه في النظر والتفكير وفهم الوجود المحيط بها ، وعرض هذا الفكر بصورته الجديدة والمدروسة على الاجيال العربية التي تجهل هذا الفكر جهلا تاما بل والتي لا تعرف ولا تتصور انه قد كان للعرب قبل الاسلام فكر وعلم على الاطلاق ثم لمرض هذه الصورة على العالم ليصبح موقفه من الفكر العربي وليصبح تاريخه للحضارة والعلوم الانسانية لان جميع الذين ارحوا للفكر الانساني وعلومه لم يضعوا في اعتبارهم قط احتمال ان يكون للعرب قبل الاسلام علم وفكر على الاطلاق والذي يلتقى نظرة على اى موسوعة تؤرخ لتاريخ الفكر وعلومه لن يخرج بغير هذه النتيجة ، ان الفكر العلمى بالمعنى الصحيح تراث يونانى نقله المسلمون الى اوريا .

يلحق بفصل التجريد والمجاز موضوع هو ثمرة من ثمرات التجريد والمجاز وهو موضوع كان يسمى تديما فقه اللغة وهو شىء آخر غير فقه اللغة في الدراسات اللغوية الحديثة وقد جمع بعض علماء اللغة تديما تحت عنوان ( فقه اللغة ) مادة لغوية رتبوها ترتيبا خاصا اطلق عليه ابو منصور الثعالبي اسم فقه اللغة وهذا الموضوع على جانب كبير من الاهمية وان كان اللغويون انفسهم لم يجمعوا هذه المادة على اساس علمى وانما جمعوها ورتبوها على اساس لغوى صرف مما جعلها في الغالب ناتمة ومبتورة ومشوهة ولكنه رغم القصور الذى في هذه المادة فهى تلفت نظرنا الى القيمة العلمية للمادة اللغوية الموجودة في بطون المعاجم والى ضرورة محاولة الاستفادة منها باعادة ترتيبها ترتيبا يهتم باستخلاص المادة العلمية منها وذلك بجمع كل المادة التى تتعلق بموضوع واحد في باب خاص بها ثم الابواب التى تنتمى لعلم واحد تحت باب عام خاص بها اى ان جميع المادة الخاصة بعلوم الحيوان مثلا تحت ( علم الحيوان ) وجميع المادة الخاصة بالنباتات تحت ( علم النبات ) وجميع المادة الخاصة بالطبيعة تحت ( علم

## كتب فقه اللغة :

الباب الثاني : في التنزيل والتمثيل وفيه خمسة فصول .

الباب الثالث : في الاشياء وتختلف أسماؤها وأوصافها باختلاف أحوالها وفيه ثلاثة فصول .

الباب الرابع : في أوائل الاشياء وأواخرها وفيه ثلاثا فصول .

الباب الخامس : في صفات الاشياء وكبارها وعظامها وضخامها وفيه عشرة فصول .

الباب السادس : في الطول والقصر وفيه أربعة فصول .

الباب السابع : في البيض واللعين والرطوبة وفيه أربعة فصول .

الباب الثامن : في الشدة والشديد من الاشياء وفيه أربعة فصول .

الباب التاسع : في الكثرة والقلة وفيه ثمانية فصول .

الباب العاشر : في سائر الأوصاف والاحوال المتضادة وفيه سبعة وثلاثون فصلا .

الباب الحادي عشر : في الماء والامتلاء والصفورة والخلاء وفيه عشرة فصول .

الباب الثاني عشر : في الشيء بين الشئيين وفيه ستة فصول .

الباب الثالث عشر : في ضروب الالوان والانار وفيه تسعة وعشرون فصلا .

الباب الرابع عشر : في اسنان الناس والدواب وتنقل الحالات بها وفيه سبعة عشر فصلا .

الباب الخامس عشر : في الاصول والاعضاء والرؤوس والاطراف وأوصافها وما يتولد منها ويتصل بها ويفكر منها وفيه ستة وستون فصلا .

الباب السادس عشر : في الامراض والادواء وما يتلوهما وما يتعلق بها وفيه أربعة وعشرون فصلا .

من هذه الكتب التي تخصصت في موضوعات يعينها

كتب الأبل لابي حاتم السجستاني ( 248 — ) وللاصمعي ( 122 — 216 ) ، ولابي عبيدة ( 110 — 206 ) ، وللنضر بن شميل ( 122 — 203 ) ، ولابي زياد الكلابي ، ولأحمد بن حاتم الباهلي ( — 231 ) .

كتب الخليل لابن قتيبة ( 213 — 276 ) وابن الاعرابي ( 150 — 231 ) ، ولابي عبيدة ، ولابي جعفر محمد بن حبيب البغدادي ( — 245 ) ، ولابي محم محمد بن هشام الشيباني ( — 245 ) ، ولأحمد ابن حاتم .

وكتب الغنم والشاة لابي الحسن الاخفش ( — 215 ) ، وللنضر بن شميل وللاصمعي .

وكتب الوحوش للاصمعي ، ولابي زيد ( 119 — 215 ) ، ولابي حاتم السجستاني .

وكتب الطير لابي حاتم السجستاني ، والنضر بن شميل ، وأحمد بن حاتم الباهلي .

وكتب البازي والحمام والحيات والعقارب لابي عبيدة .

وكتاب الفرس للاصمعي .

وكتاب النحل والحشرات لابي حاتم السجستاني :

وكتاب النحل والعسل للاصمعي (1) .

والذي يستلقت النظر ان هذا النوع من التصنيف رغم قصوره يضع تحت ايدينا مادة خصبة لدراسة اسلوب العرب في تتبع مختلف الظواهر التي عرفوها وفي ملاحظتها وترتيبها وتصنيفها .

وقد جمع أبو منصور هذه الظواهر في ثلاثين بابا كل باب مقسم الى عدة فصول تتراوح بين ثلاث فصول وستة وستين فصلا في الباب الواحد .

وقد رتب أبو منصور ابوابه على الوجه الآتي :

الباب الاول : في الكليات وفيه أربعة عشر فصلا .

(1) مقدمة كتاب الحيوان للجاحظ ج 1 ص 14 — 16 نقلا عن وفيات الاعيان لابن خلكان وبغية الوعاة للسيوطي ونزهة الالباء وفهرس بن النديم وكشف الظنون ومعجم الادياء .

الباب السابع عشر : في ضروب الحيوانات وأوصافها  
وفيه تسعة وثلاثون فصلا .

الباب الثامن عشر : في الأحوال والأعمال الحيوانية وفيه  
سبعة وعشرون فصلا .

الباب التاسع عشر : في الحركات والأشكال والهيئات  
وضروب الضرب والرمى وفيه أربعون فصلا .

الباب العشرون : في الأصوات وحكاياتها وفيه ثلاثة  
وعشرون فصلا .

الباب الحادي والعشرين : في الجماعات وفيه أربعة  
عشر فصلا .

الباب الثاني والعشرين : في القطع أو الانتطاع والقطع  
وما يقاربها من الشق والكسر وما يتصل بهما وفيه  
سبعة وعشرون فصلا .

الباب الثالث والعشرين : في اللباس وما يتصل به  
والسلاح وما ينضاف إليه وسائر الآلات والأدوات وما  
ياخذ مأخذها وفيه تسعة وأربعون فصلا .

الباب الرابع والعشرين : في الأطعمة والأشربة وما  
يناسبها وفيه سبعة عشر فصلا .

الباب الخامس والعشرين : في الآثار العلوية وما يتلو  
الأمطار من ذكر المياه وأماكنها وفيه ثمانية عشر فصلا .

الباب السادس والعشرون : في الأرضين والرمال  
والجبال والامكن والمواضع وما يتصل بها وفيه سبعة  
عشر فصلا .

الباب السابع والعشرون : في الحجارة وفيه ثلاثة  
فصول .

الباب الثامن والعشرون : في النبات والزرع والفضل  
وفيه سبعة فصول .

الباب التاسع والعشرون : في ما يجري مجرى الموازنة  
بين العربية والفارسية وفيه خمسة فصول .

الباب الثلاثون : في فنون مختلفة الترتيب من الأسماء  
والأعمال والأوصاف وفيه تسعة وعشرون فصلا .

وقد فعل الإسكافي شيئا قريبا من هذا في كتاب  
مبادئ اللغة وإن كان لم يقسم أبوابه إلى فصول كما  
فعل الثعالبي وكذلك فعل ابن سيده في كتابه المخصص  
وقد قام بإعادة ترتيبه وتنسيق مادته بعد الاستعانة  
بالقاموس المحيط وفقه اللغة والمصباح واللسان  
والاساس وغيرها من كتب اللغة — عبد الفتاح  
الصعدي وحسين يوسف موسى في كتاب الإنصاح .

ونخرج من هذه التصنيفات بأن العرب قد لاحظوا كافة  
الظواهر التي وقعت تحت ملاحظتهم — حسية كانت أو  
معنوية — وحصروها ورمصوها في مختلف أحوالها  
ومن مختلف جوانبها .

أما من ناحية العموم والشمول كالكليات من سماء  
وأرض وحيوان ونبات . . الخ أو من ناحية اختلاف  
الأحوال واختلاف الأسماء والصفات باختلافها كأن  
يقال : كأس إذا كان يشرب فيها والامى زجاجة .

وكان يقال : الصبح في أول النهار والغسق في أول  
الليل وذلك في اليوم الواحد .

أو من ناحية الحجم كالكبر والعظم أو الضخامة  
والصغر . . الخ .

أو من ناحية الهيئة : كالتطول والقصر . . الخ .

أو من ناحية الشدة : كالبيس والليونة والشدة  
والرخاوة .

أو من ناحية الكثرة والقلة .

أو من ناحية التضاد كالبياض والسواد .

أو من ناحية السعة كالخلاء والامتلاء .

أو من ناحية اللون أو النمو أو الصوت . . الخ .

ولم يلفت شيء من ملاحظتهم ما وقع تحتها كما أن  
ملاحظتهم للظواهر لم تكن سطحية أو عابرة تكفي  
بتوصف الشيء في عمومه وجملته .

ونضرب لذلك مثلا بأحدى الظواهر الحسية وهي :  
تفصيل كمية المياه وكيفيتها .

اذا كان الماء دائما لا ينقطع ولا ينزح في عين  
 او بشر فهو عَسَدٌ .  
 فاذا كان اذا حرك منه جانب لم يضطرب جانبه  
 الاخر فهو كُرٌّ .  
 فاذا كان كثيرا عذبا فهو عَدَقٌ وقد نطق به القرآن .  
 فاذا كان مغرقا فهو قَمَرٌ .  
 فاذا كان تحت الارض فهو غُورٌ .  
 فاذا كان جاريا فهو غَيْلٌ .  
 فاذا كان على ظهر الارض يسقى بغير آلة من دالية  
 او دولا ب او ناعورة او منجّتون فهو سِيحٌ .  
 فاذا كان ظاهرا جاريا على وجه الارض فهو معين  
 وسنيم وفي الحديث ( خير الماء السنيم ) .  
 فاذا كان جاريا بين الشجر فهو غل .  
 فاذا كان مستنقعا في حفرة او نقرة فهو ثَقَبٌ .  
 فاذا نبط من ثعر البئر فهو نَبِطٌ .  
 فاذا غادر السيل منه قطعة فهو قَدِيرٌ .  
 فاذا كان الى الكعيبين او الى انصاف السُّوق فهو  
 ضَحْضاحٌ .  
 فاذا كان قريب القعر فهو ضَحَلٌ .  
 فاذا كان قليلا فهو ضهل .  
 فاذا كان اقل من ذلك فهو وَثَلٌ .  
 فاذا كان خالصا لا يخالطه شيء فهو قراح .  
 فاذا وقعت فيه الامثمة حتى كان يتدفق فهو سَدِيمٌ .  
 فاذا خاضته الدواب فككرته فهو طَرَقٌ .  
 فاذا كان متغيرا فهو سَجِسٌ .  
 فاذا كان نثنا غير انه شروب فهو آجِنٌ .  
 فاذا كان لا يشربه احد من نثنه فهو آيِنٌ .  
 فاذا كان باردا منتنا فهو غَسَّاقٌ ( بتشديد السين  
 وتخفيفها ) ، وقد نطق به القرآن .  
 فاذا كان حارا فهو سُخْنٌ .  
 فاذا كان شديد الحرارة فهو حَمِيمٌ .  
 فاذا كان مُسَخَّنًا فهو مُوعَزٌ .  
 فاذا كان بين الحار والبارد فهو فَايِرٌ .

فاذا كان باردا فهو قار .  
 ثم خَصْرٌ .  
 ثم شِيمٌ .  
 ثم شُنَّانٌ .  
 فاذا كان جامدا فهو قارس .  
 فاذا كان سائلا فهو شرب .  
 فاذا كان طريا فهو غريض .  
 فاذا كان ملحا فهو زُعَاقٌ .  
 فاذا اشتدت ملوحته فهو حُرَاقٌ .  
 فاذا كان مُرا فهو قُعَاعٌ .  
 فاذا اجتمعت فيه الملوحة والمرارة فهو اُجَاجٌ .  
 فاذا كان فيه شيء من العذوبة وقد يشربه الناس  
 على ما فيه فهو شَرِيبٌ .  
 فاذا كان دونه في العذوبة وليس يشربه الناس  
 الا عند الضرورة وقد تشربه البهائم فهو شَرُوبٌ .  
 فاذا كان عذبا فهو فرات .  
 فاذا زادت عذوبته فهو نُفَاحٌ .  
 فاذا كان زاكيا في الماشية فهو نَمِيرٌ .  
 فاذا كان سهلا سائفا متسلسلا في الحلق من طيبه  
 فهو سلسل وسلسال .  
 فاذا كان يمس الغلة فيشفيها فهو مَسُوسٌ .  
 فاذا جمع الصفاء والعذوبة والبرد فهو زلال .  
 فاذا اكثر عليه الناس حتى تزحوه بشفاهم فهو  
 مَشْفُوهٌ ثم مَشْفُودٌ به ثم مَضْفُوفٌ . ثم مَكْكَوكٌ ثم مَجْجُومٌ  
 ثم مَنَّقُوصٌ وهذا عن ابي عمر الشيباني (2) .  
**امثلة لبعض الظواهر المعنوية :**  
 رجل مُعْجِبٌ .  
 نسم تَائِهٌ .  
 ثم مَزْهُوٌ من وَمَنخُوٌ من الزهو والنخوة .  
 ثم يادخ من البَدَخُ .  
 ثم اصيد اذا كان لا يلتفت يمنة ويسرة من كبره .  
 ثم مُتَفَطَّرٌ اذا تشبه بالفطرفة كثيرا .  
 ثم مُتَفَطَّرِسٌ اذا زاد على ذلك (3)

(2) فقه اللغة للثعالبي ص 289 : 129

(3) نفس المصدر السابق ص 154

العَبُوس :

- اذا روعى ما بين عينيه فهو قاطب وعابس .
- فاذا كثر عن ائيلبه مع العبوس فهو كالح .
- فاذا زاد عبوسه فهو ياسر ومكهر .
- فاذا كان عبوسه من الهم فهو ساهم .
- فاذا كان عبوسه من الضيق وكان مع ذلك منتفخا فهو مَبْرَطَم عن الليث عن الاصمعي (4) .

#### كيفية النظر وهيئته في اختلاف احواله :

- اذا نظر الانسان الى الشيء بجامع عينه قيل رَمَعَهُ
- فان نظر اليه من جانب اذنه قيل كَحَظَهُ .
- فان نظر اليه بعجلة قيل لَمَحَهُ .
- فان رماه ببصره مع حدة نظر قيل حدجه بطرفه
- وفي حديث ابن سعود رضى الله عنه حدث القوم ما حدجوك بابصارهم .

فان نظر اليه بشدة وحدة قيل ارشقه وأسف النظر اليه وفي حديث الشيب انه كره ان يُسِف الرجل نظره الى امه واخته وابنته .

- فان نظر اليه نظر المعجب منه او الكاره له او البغض اياه قيل : سَفَنَهُ وَسَفَنَ اليه سَفُونًا وَسَفَنًا .
- فان اعاره لحظ العداوة قيل نظر اليه سَرَزَا .

فان نظر اليه بعين المحبة قيل نظر اليه نظرة ذى علق .

فان نظر اليه واضعا يده على حاجبه مستظلا بها من الشمس ليستبين المنظور اليه قيل استكسه واستوضحه واستشرفه .

فان نشر الثوب ورفع لينظر الى صفاقته وسخافته او يرى عوارا ان كان به قيل استشقه .

فان نظر الى الشيء كاللمحة ثم خفى عنه قيل لاحه لوحه كما قال الشاعر : وهل تنغنى لوحه لو الوحها فان نظر الى جميع ما في المكان حتى يعرفه قيل نفسه نفضا .

فان نظر في كتاب او حساب ليهذبه او ليستكشف صحته وسقمه قيل تصفحه :

- فان فتح جميع عينيه لشدة النظر قيل حدق .
- فان لالهما قيل ترق عينيه
- فان انقلب حملان عينيه قيل حلق .
- فان غاب سواد عينيه من الفزع قيل ترق بصره .
- فان فتح عين مغزوع او مهدد قيل جمج .
- فان بالغ في فتحها وأحد النظر عند الخوف قيل حدج ونزع .

فان كسر عينه في النظر قيل دنقس وطرفس عن ابن عمرو فان فتح عينيه وجعل لا يطرف قيل شخص وفي القرآن شاخصة ابصارهم .

فان ادام النظر مع شكون قيل اسجد عن ابن عمرو أيضا (5)

فان نظر الى اتق الهلال لليلته ليراه قيل : تبصره فان اتبع الشيء بصره قيل اثاره بصره (5) .

\* \* \*

يلاحظ على هذه الظواهر انها تتبع في طريق الملاحظة والاستقصاء والرصد والتسجيل خطوات المنهج العلمي التجريبي الحديث ولهذا كما نعتد دلالة علمية خطيرة لانها تضعنا امام عقلية علمية تجريبية نضجت فيها الى حد كبير ملكات عقلية متعددة من قوة الادراك وشموله وسعته ومن سعة الخيال وتنوعه ومن عمق الملاحظة ودقتها ونفاذها ومن القدرة على الترتيب والتنسيق والتوصيف والتبويب .

هذا على الرغم من ان علماء اللغة يهتموا بالقيمة العلمية لهذه المادة وانما اهتموا بقيمتها اللغوية ولو انهم التفتوا الى القيمة العلمية التي التفت اليها الجاحظ في كتابه الحيوان لوصل الينا علم كثير ودقيق في مجال الظواهر التي وقعت تحت ملاحظتهم .

وابلغ دليل على ما تقول هو ذلك المرجع النفيس في علم الحيوان الذي بذل فيه الجاحظ جهده واستوعب فيه جل المادة المعروفة في عصره في هذا الباب مما نقل عن اليونان وغيرهم بالاضافة الى المادة العربية وفي هذا يقول الجاحظ وهو حجة في هذا الباب تحت عنوان

(4) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة .

(5) فقه اللغة 113 - 114 .

معرفة العرب والاعراب بالحيوان : وقل معنى سمعناه  
في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة وقراناه في كتب  
الاطباء والمتكلمين الا ونحن قد وجدناه او تريبا منه  
في اسفار العرب والاعراب وفي معرفة اهل لغتنا وملتنا

ولولا ان يطول الكتاب لذكرت ذلك اجمع . وعلى  
انى قد تركت تفسير اشعار كثيرة وشواهد عديدة مما  
لا يعرفه الا الراوية التحرير من خوف التطويل (6) .

وهذا الذى نراه يحملنا على ان نلفت النظر الى  
انه اذا تأكد فضل العرب على الحضارة الغربية واذا  
تأكد ان العرب هم الذين احيوا واسهموا في ارساء  
تواعد المنهج العلمى التجريبي والتطبيقي وذلك ما  
تناوله علماء ومؤرخون غربيون بالحديث والحداثة  
فان ذلك لا يجوز ان يرد فقط الى الحضارة العربية  
الاسلامية التى نضجت في ظلها العلوم التجريبية على

ايدى علمائها المشهورين من امثال الحسن بن الهيثم  
وجابر بن حيان والرازي وابن سينا والبيروني  
والادريسي . وغيرهم وانما يجب ان يرجع به الى  
ما قبل الاسلام حيث وضع الاساس التجريبي وتكونت  
العقلية التجريبية واذا كان التجريب قبل الاسلام  
لم يأخذ طابعا معمليا ولم يتم على اساس وضع النظريات  
وانشاء الفروض والتأسيس عليها واستخلاص النتائج  
العلمية فان ذلك لا يمكن ان يقل من قيمة المرحلة السابقة  
على الاسلام لانها المرحلة التى اختبرت ونضجت فيها  
الملكات العقلية الاساسية اللازمة لهذا النوع  
من الدراسة التى استطاعت حين اتاحت لها الفرصة  
في ظل الحضارة الاسلامية وبعد ترجمة العلوم ان تؤتى  
اكلها في صورة النظريات العلمية والمدرسات العملية  
التي ازدهرت بها جوانب كثيرة من جوانب المعرفة  
التطبيقية في الكيمياء والبصريات والهندسة والطب  
والجغرافيا والفلك . الخ على ايدى العلماء المسلمين.